الفصل الخامس

نماذج من شعره

١ — من الإلياذة

غضب اخيليوس : [1]

لما عرف أجاممنون أن أبوللون غاضب من أجل كاهنه ، أعلن أنه سيرد ابنة الكاهن إليه ويستعيض عنها بحظية اخيليوس الذى يغضب ويثور ضده ، فتحتدم بينهما مشاجرة عنيفة يتبادلان فيها التحدى والتهديد والإهانة

فقال اخيليوس : « أى أجاممنون أيها الجشع ! أى تعويض تطلب الآن من الآخيين ؟ رد هذه الفتاة لأبيها كاهن أبوللون ، فإذا انتصرنا على طرواده ذات الأبراج العالية ، سنقدم لك بدلا منها ، ثلاث حسناوات أو أكثر ،

ورد عليه أجاممنون العظيم قائلا : « لا تحاول يا أخيليوس ، مهما علا قدرك ، ان تخدعنى ! إنك لن تقنعنى أبداً . أتريد أن تحتفظ بفتاتك وأحرم أنا من حبيبتى ؟ أتطلب أن أردها إلى أبيها ؟ إذن فليعطنى الآخيون إمرأة جميلة مثلها ! فإذا لم يفعلوا ذلك فسوف أذهب بنفسى وآخذ حبيبتك أوحبيبة أودوسيوس أوحبيبة أجاكس ، وليغضب منكم من أزور خيمته واستولى على فتاته » .

---

(١) اخترنا هذه المقطوعات التى تلائم الذوق العربى ، والتزمنا أن تكون الترجمة أمينة حرفية ما وسعنا ذلك ، إلا إذا اضطرتنا العبارة العربية إلى تصرف يسير ، واستبعدنا الرموز التى تشير إلى معتقدات اليونان وأساطيرهم إذ لا يمكن فهمها إلا بشروح طويلة لا يتسع لها هذا الكتاب .

ونظر إليه اخيليوس بازدراء شديد وقال : « آه ! ما أوقحك أيها الأنانى الجشع ! كيف تنتظر من أى محارب أن يطيع أوامرك راضياً ، ويذهب للقتال معك ؟ فهل أنا الذى جئت هنا لمحاربة الطروادیين ؟ إنهم لم يسيئوا إلىّ مطلقاً ، إنهم لم يسرقوا بقرى ولا خيلى ، ولم ينهبوا محاصيل أرضى ، فبينى وبينهم جبال شاهقة وبحار صاخبة ، ولكننا جئنا معك ، أيها الوقح ، لنرضيك ونرضى أخاك منيلاوس . أو لا يعنيك هذا فى شىء الآن ؟ بالطبع لا ! بل أراك تهدد بالاستيلاء على فتاتى التى أعطانيها اليونان ؛ سأرحل إذن ولن أفكر فى البقاء هنا بعد أن أهدرت كرامتى »

فرد عليه أجاممنون قائلا : « ارحل إذا شئت ، فلن أرجوك البقاء من أجلى فهناك من يؤيدنى ويجلنى خاصة زيوس الحكيم ، إنك أبغض الىّ من كل الملوك الذين يرعاهم سيد الأولومپوس لأنك تحب الخصام دائماً ، وتميل إلى الحرب والقتال ، فأبحر إلى بلدك بسفنك وجندك ، فأنا لا أعيرك اهتماما ولا أعبأ بغضبك ، وإليك إنذارى : أما وقد أمرنى ابوللون برد خروسيس ، فسوف أرسلها إلى أبيها ، وأذهب بنفسى إلى خيمتك وآخذ برسيس ذات الوجنات الوردية لتعلم إلى أى حد أنا أعظم منك شأنا ، وليتعظ غيرك فلا يدعى أنه مثلى ولا يتظاهر بأنه شبهى »[1]

* * *

رجل من الرعماء يستفز اجاممنون ، ملك الملوك :

كان لمشاجرة البطلين أثر سيء فى نفوس الآخيين ، فحقدوا على أجاممنون

---

(٢) الإلياذة : ١ : ١٠١ وما بعده .

واستنكروا فعلته وضاقوا بجشعه ، ولكنهم خافوا منه فلم يصارحوه برأيهم إلا ثرسيتيس ، فقد صاح فى وجهه قائلا :

« ما شكواك يا ابن اتريوس ؟ وما تريد ؟ إن سفائنك مملوءة بالمال والعتاد ، مملوءة بالغيد الحسان اللاتى نقدمهن لك عندما نستولى على مدينة من المدن. أأنت فى حاجة إلى مزيد من الذهب يحمله إليك أحد الطراوديين فداء لابنه ؟ أم تريد فتاة جميلة تحتفظ بها لنفسك ؟ إنه لا يليق بزعيم الآخيين أن يدفع بهم إلى البؤس والشقاء . وأنتم أيها الآخيون ! أى خزى تجلبون على أنفسكم ! لقد أصبحتم لا تستحقون اسمكم ، فلنعد إلى بلادنا ونترك ذلك الرجل هنا يذوق ثمرة تصرفاته ويشعر بحاجته إلينا . لقد أهان اخيليوس الذى يفضله ويمتاز عليه ، فاغتصب حبيبته واحتفظ بها لنفسه » (١)

* * *

وفد يذهب لاسترضاء اخيليوس :

عندما غضب اخيليوس وانسحب من المعركة ، ساء موقف اليونان وتوالت عليهم الهزائم ، فاتفق رؤساؤهم على إرسال سفارة تسترضيه وتقنعه بالعودة إلى القتال ، فلما وصل أعضاء هذا الوفد إلى خيمته ، تقدم إليه أودوسيوس وقال :

« سلام عليك ، اخيليوس ! إن مصيبة فادحة تشغل بالنا وتثير مخاوفنا ، إننا لا نعلم إذا كنا سننقذ السفن أو سنفقدها ، لقد أقام الأعداء بالقرب منها معسكراً لهم ولحلفائهم ، وهكتور يختال بقوته ويعصف بجنودنا ،

---

(١) الإلياذة : ٢ : ٢٥٥ — ٢٤٠ .

لا يحترم الآلهة ولا البشر ، لقد استولى عليه غضب شديد وقرر أن يشعل النار فى السفن ويجندل رجالنا أجمعين وكل ما أخشاه أن يحقق الأرباب رغبته فيكتبوا علينا الموت بعيداً عن ديارنا .

فهيا إذا كنت تريد أن تنقذ اليونان من مصيبتهم ، وإذا توانيت فسوف تعانى أنت نتائجها ، لأن الشر إذا وقع ، لن تجد لك منه مخرجاً ، فأسرع وفكر فى إنقاذ اليونان من بلواهم .

فعندما أرسلك أبوك مع أجاممنون نصحك قائلا — أى بنى ! إن أثينا وهيرا تمنحانك القوة ولكن عليك أن تكبح جماح ثورتك . إياك والشقاق ! كن وديعاً حتى يجلك اليونان ، شبابهم وشيوخهم — تلك نصيحة الشيخ التى نسيتها .

ولكن هدىء من ثورتك اليوم ، واترك الغضب جانباً ، ان اجاممنون يقدم إليك أنفس الهدايا إذا تخليت عن مقتك وغضبك . ولكن إذا كنت لاتزال تبغضه وتبغض هداياه ، فلتأخذك الشفقة بغيره من اليونان الذين أنهكتهم الحرب . إنهم يجلونك كما يجلون الآلهة ، وسوف تبلغ بينهم قمة المجد .

فأجابه اخيليوس قائلا : أى أودوسيوس ، ياصاحب الحيل ! يجب أن أصارحك بمأريد وبما سيحدث فعلا حتى لا تعود إلى وتضايقنى ؛ إنى أكره من يخفى فى نفسه شيئاً ويقول شيئاً آخر ، لذا سأبوح لك بما سوف أفعل . فلا اجاممنون ولاغيره من اليونان يستطيعون إقناعى لأنهم تنكروا الى رغم الجهد المضنى الذى بذلته فى محاربة العدو ؛ فالجزاء واحد سواء بقينا فى خيامنا أم قاتلنا قتال الجبابرة . إنهم يمجدون الجبان كما يمجدون

الشجاع ؛ ولم يبق لى شىء مطلقا بعد الأخطار التى واجهتها والمعارك العديده التى خضتها . كنت أقضى الليالى دون أن أذوق للنوم طعما وأقضى الأيام دون أن أعرف للراحة معنى ؛ أما اجاممنون فكان يبقى فى المؤخرة بالقرب من السفن ، ينتظر الغنائم ، فيوزع منها القليل ويحتفظ لنفسه بالكثير ، فقولوا له كل ماسمعتموه منى ، وحدثوه بذلك على رءوس الأشهاد حتى يغضب اليونان كما غضبت .

فلن أتفاوض معه ولن اقاتل فى صفوفه ، لقد سخر منى وأساء إلىّ ، ولكنه لن يخدعنى أبدا . فليذهب إلى حتفه بظلفه لأن زيوس حرمه نور الحكمة والرشاد » .(١)

* * *

مناجاة بين اندروماخا وهكتور :

كانت تحب زوجها إلى حد العبادة والتقديس وتحاول أن تمنعه من الذهاب إلى ساحة الوغى ، وهاهو يودعها قبل معركة حامية الوطيس لايضمن عودته منها ؛ وهذه كلمات اندروما خاله :

« هكتور ، أيها البائس ، إن حماستك ستدفعك إلى الهلاك . ماأشقانى ! الا ترحمنى وترحم طفلك الصغير ! إننى سأترمل عما قريب ، فعما قريب سيقتلك اليونان ، ولكننى أتمنى أن أموت حتى لا أعيش وحدى ، لأننى لن أسعد من بعدك ولن أعرف إلا الأحزان والهموم . لقد فقدت أبى وامى وكل إخوتى . فأنت ، ياهكتور ، أبى وأمى ، وأنت أخى وأنت زوجى ، فابق هنا وارحمنى » .

---

(١) الإلياذه : ٩ : ٢٢٥ وما بعده .

فرد عليها هكتور العظيم قائلا : « إنى مهموم لذلك ، ولكننى أخاف الطرواديين والطرواديات إذا هربت ، كالجبان ، من المعركة . هذا إلى أن قلبى لايدفعنى إلى الفرار لأننى تعلمت أن أكون شجاعا على الدوام وأن أقاتل فى طليعة الطرواديين لأذود عن مجدأبى وأشيد مجدى ؛ إننى أعلم وأحس فى نفسى وفى قلبى بأنه سيأتى يوم تدمر فيه طرواده المقدسة ، ويهلك پرياموس ويفنى شعبه . ولكننى لا أفكر فى المستقبل ولااشغل بالى بهموم الطرواديين واحزان أمى وأبى وأخوتى بقدرما أغتم لمصيرك المؤلم عندما يأسرك أحد الأعداء فيأخذك معه وانت تبكين وتنوحين . وهناك فى بلاد اليونان تعيشين تحت إمرته تغزلين وتحملين الماء . وعندما يراك الناس والدمع ينهار من عينيك يقولون — هاهى زوجة هكتور بطل الطرواديين فى المعركه — يقولون هذا فتتجدد أحزانك لحاجتك إلى رجل مثلى ينقذك من العبودية ويرد إليك حريتك . فليتنى أموت أو أدفن حيا ، فهذا أحب إلىّ من أن أراك باكية مستعبدة » .

«ثم يأخذ ابنه بين ذراعيه ويضمه إلى صدره ويدعو الآلهة أن ترعاه فيقول :

أى زيوس ، أى أرباب السماء ! حققوا رجائى ! ليت ابنى يشتهر بين الطرواديين مثلى ! ليته يكون قويا عزيز الجانب ، يحكم حكما وطيداً ، ليتهم يوما يقولون عنه ، وهو راجع من ساحة الوغى ، إنه أعظم من أبيه وليته يعود بأسلاب أعـــدائه تقطر منهـا الدماء . فيسعدأمه ويشرح صدرها . »

ثم يضع الطفل بين ذراعى أمه ويلاطفها قائلا : « لاتحزنى من أجلى !

فلن يسوقنى إلى الموت رجل قط إذا لم تشأ الأقدار ، لكن إذا حم القضاء فلامفر منه ، إذهبي إذن إلى المنزل وانصرفى إلى شئونك » . (١)

فودعته وعادت إلى بيتها والدمع ينهار من مقلتيها .

* * *

برياموس يتوسل الى اخيليوس ليسلمه جثة هكتور :

« اخيليوس ، يامن تشبه الآلهه ! أذكر اباك ؛ إنه كهل مثلى يقترب من الشيخوخة البغيضة ، ويحتمل أن جيرانه يذيقونه كئوس الضنى وأنه لايجد من يدفع عنه البلاء وينقذه من الدمار ؛ ولكنه ، على أى حال ، أسعد منى ، فهو يقر عينا عندما يعلم أنك حى ترزق ، ويؤمل دائما أن يراك عائداً من طرواده ؛ أما أنافاشقى الخلق اجمعين . لقد انجبت ابناءً كثيرين ، لم يبق لى منهم ولد واحد . كانوا خمسين حين جاء اليونان إلى بلدنا ، منهم تسعة عشر من زوجتى والآخرون من نساء القصر ؛ مات معظمهم فى الحرب الضروس ، ثم قلت أنت هكتور وهو يدافع عن بلاده ، هكتور الذى كان يفضلهم جميعا ، لأنه كان يحمى المدينة ويذودعنا . والآن جئت لافتديه بفداء ضخم عظيم ؛ فاحترم الآلهة وارحمنى ، واذكر أباك ياأخيليوس ، واعلم اننى اشد الناس بؤسا لأننى أقدمت على عمل مالم يعمله انسان من قبل ، فلثمت يد من قتل ولدى » .

ولماسمع اخيليوس كلامه تذكر أباه فاجهش فى البكاء وارتمى الشيخ عند قدمية وبكى ، ثم وقف البطل وأخذ بيده وساعده على النهوض وقال :

---

(١) الإلياذة : ٦ : ٣٦٩ ومابعد .

« آه ! ماأشقاك ! لاشك أن فؤادك ذاب من الآلام والهموم . كيف أقدمت على المجيء وحدك إلى سفن الآخيين ، تحت أعين من قتل كثيراً من أبنائك الأعزاء ؟ فهل قلبك من حديد ؟ .

ولكن اجلس على هذا العرش ، وهيا بنا ننسى آلامنا وهمومنا لأنها لاتفيد شيئاً ، فهذا قضاء الآلهة فرضوه علينا معشر البشر : أن نعيش فى حزن عميق، بينما هم لا يعرفون الحزن أبداً » .

ورد عليه پرياموس قائلا : « لا تطلب إلىّ الجلوس ، يا أخيليوس ، طالما هكتور ملقى بعيداً عنى ؛ أسرع فى رده إلىّ حتى تراه عيناى ! تقبل الفداء العظيم الذى جئت به » .

فنظر إليه أخيليوس وقال : « لا تثرنى ثانية أيها الشيخ ! فأنا أيضا افكر فى رد هكتور إليك . لقد جاءتنى أمى رسولة من قبل زيوس ، ولقد قادك أنت أيضاً إله ، أرشدك ، فيما أعلم ، إلى سفن الآخيين ولولا ذلك لما استطعت المجىء إلى هذا المعسكر حتى ولو كنت فى ريعان الشباب . فلو أنك حاولت ، لما نجوت من يد الحراس ولما تمكنت من اقتحـــام الأبواب . فلا تثر أشجانى ، أيها الشيخ، لأنى أخاف أن أصيبك بأذى رغم أنك جئتنى متوسلا وبذا أخالف قوانين زيوس » .

ولما سكت خاف پرياموس وأطاع ، ثم انتفض اخيليوس واندفع خارج الدار ، ونادى الخادمات وأمرهن بغسل الجثة ودهنها . فلما انتهين من إعدادها ، لفت فى كفن جميل ثم وضعها أخيليوس بنفسه فى نعش حمله أتباعه ووضعوه فوق عربة پرياموس ، ثم عاد البطل إلى منزله وقال لپرياموس :

« لقد عاد إليك إبنك ، أيها الشيخ ، تحقيقا لرغبتك ، لقد وضعته على عربتك . وغداً ستراه عند بزوغ الفجر وتأخذه معك . »[1]

* * *

٢ — من الأوديسا

تليماخوس والعشاق :

لما ضاق تليماخوس بالعشاق الأشرار جمع مجلس الأمة ليعرض على أعضائه الأمر ويطلب إليهم العون ليخلصوه من هؤلاء الفجار ، فوقف فيهم خطيباً وقال :

« لقد دعوتكم لأن الحزن أضنانى ؛ إننى لا أعلم شيئاً عن عودة الجيش ، وليس لدى خبر أزفه إليكم أو موضوع سياسى أعرضه عليكم ؛ ولكننى فى حاجة إلى عودتكم لأن المصائب نزلت بى : لقد فقدت أبى الباسل ، ملككم ووالدكم جميعا ؛ وهذا بلاء أعظم سيجلب على قصرنا الدمار ويحرمنا نعم الحياة ، إنهم عشاق يضايقون أمى ويطمعون فى الزواج منها رغما عنها ، إنهم أمراء إيثاكا اعتادوا أن يقضوا وقتهم فى قصرنا ، يذبحون أبقارنا وأغنامنا ، ويقيمون الولائم ويعاقرون الخمور ، يسرفون فى كل شىء لأنهم لا يجدون رجلا مثل أبى يردعهم ويحافظ على القصر من عبثهم لأنى مازلت قاصراً لا أقدر عليهم ؛ إنهم أوغاد لا يحتملون ، فثوروا فى وجههم واخشوا لوم جيرانكم وخافوا يوم الحساب وفكروا فى غضب الآلهة ؛ إنى استحلفكم بسيد الأرباب أن تضعوا حداً لهذه الفوضى ، وتساعدونى على قضاء أيامى وكفانى حزنى ووحدتى ! اللهم إلا إذا كان أبى قد أساء إليكم وأنتم تنتقمون منى لفعلته وتثيرون علىّ هؤلاء الأدعياء »

---

(١) الإلياذة : ٢٤ : ٤٦٨ وما بعده .

ولما انتهى من الكلام ، اغرورقت عيناه بالدموع وضرب الأرض بصولجانه ثم ألقاه . وأسف القوم أسفاً بالغاً ووجموا وجوما شديداً وساد الصمت ولم ينبس أحدهم ببنت شفه ،إلا انتنوؤس الذى ردعليه قائلا :

« ما أسمى عبارتك ياتليما خوس ! وما أشد جرأتك ! لقد أخجلتنا ولكن هذه ليست غلطتنا ؛ إنك تلوم العشاق حين لاملوم إلا أمك لأنها أكثر النساء مكراً . خدعت الأدعياء طوال أعوام ثلاثة كادت أن تكون أربعة ، كانت أثناءها تحيي فى نفوسهم الآمال وتقطع لهم الوعود وتبعث إليهم الرسائل ولكنها تدبر فى نفسها أمراً مخالفاً ؛ وإليك آخر حيلة التجأت إليها : أقامت فى غرفتها منسجا كبيرا تصنع عليه ثوبا طويلا رقيقا ، وتأتى لنا فى نفس الوقت وتقول — أيها العشاق ، إنكم ، ياشباب ، تتعجلون وتطمعون فى الزواج منى ، لأن أودوسيوس قد مات ؛ ولكن عليكم أن تنتظروا حتى انتهى من هذا الثوب ليكون كفنا للا أرتيس الكهل عندما يموت ، ولا تجعلونى مضغة فى أفواه اليونانيات إن تركت رجلا ثريا مثله بدون كفن — هذا ماقالته ، فانصرفنا عنها . ولكنها كانت تنقض بالليل مانسجته بالنهار . وهكذا استطاعت ان تخدع اليونان ثلاث سنوات ، ولما مرت الأيام وبدأ العام الرابع فضحت إحدى الوصيفات سرها ؛ ففاجأناها وهى تنقض غزلها ، وبذلك اضطرت إلى إتمامه رغما عنها .

هذا ماسيقوله الأدعياء وتلك هى الحقيقة فاعرفها ليعرفها اليونان جميعا ، أرسل أمك إذن وادفعها إلى الزواج بمن يختار أبوها ومن تحب هى » .

ورد عليه تليماخوس قائلا : إنى لاأستطيع ، ياأنتنوؤس ، طرد أمى من القصر على غير ماترضاه ، أمى التى ولدتنى وغذتنى ، لأنى إذا قررت طردها فسوف أشقى شقاء مريراً وسوف أدفع الثمن غاليالأبيها إ كاريوس؛

إنها ستدعو إلاهات الانتقام لتثأر مني وسأكون موضعا لسخط الناس أجمعين، لذا لن أتخذ هذا القرار أبداً، ولكن اذا كانت ضمائركم تؤنبكم، فاخرجوا انتم من القصر، وأقيموا ولائمكم في غير هذا المكان، بددوا ثروتكم، واستضيفوا بعضكم بعضاً، أما إن رأيتم أنه من اللائق بكم أن تأكلوا أموال غيركم فاستمروا في نهبكم إن شئتم، أما أنا فسأرفع صوتي عاليا وأهتف بالآلهة أن تقتص من إسرافكم وبغيكم، وعندئذ سوف تهلكون في قصري ولن تجدوا من ينتقم لكم». (١)

* * *

جزيرة كالوبسو:

أرسل كبير الآلهة ابنه هرميس إلى هذه الحورية يأمرها بأن تطلق سراح أودوسيوس وتسمح له بالعودة إلى بلده، ومافتأ الرسول المقدس يرف بين السماء والماء ويجوب الفضاء حتى بلغ الجزيرة المنعزلة...

«ومابرح يتنقل بين ربوعها حتى بلغ الكهف الفسيح الذي تأوي إليه حورية الماء ذات الخصل الجميلة، فوجدها هناك ورأى عندها موقداً كبيراً تتأجج فيه النار وتتوهج، تنتشر منه رائحة الأرز والصندل العابقة وتملأ أرجاء الجزيرة، وكانت العروس تغرد بصوتها العذب الرخيم وتعمل في منسج أمامها تحركه في سرعة فائقة.

«ولقد بسقت حول الكهف أشجار السرو العاطرة والحور والسنديان، وفوق أغصانها اتخذت الطيور أوكارها؛ وامتدت على جوانب الكهف أفنان الكروم قوية مثقلة بالعناقيد؛ وتدفقت أربع عيون عن ماء صاف

---

(١) الأوديسا: ٢: ٤٠ وما بعده.

يجرى فى جهات معددة ، ونبتت حولها أعشاب نضرة وسندس جميل وبنفسج مزهر .

«منظر رائع يسحر الألباب ويبعث البهجة والسرور فى قلوب الأرباب الخالدين .ووقف هرميس مشدوه الفكر يردد طرفه فى هذا المنظر العجب ثم أفاق ودلف إلى الكهف (١) .

* * *

قصر الكيلوڤوس:

عندما قابلت ناوسيكا بطل الأوديسا ملقى على الشاطىء بالقرب من قصر أبيها ، توسمت فيه النبل ورثت لحاله ، فارشدته إلى القصر ونصحته بمقابلة الملك ليمد له يد المساعدة . .

« ولما وصل إلى القصر بهره لألاء كنور الشمس أو شعاع القمر ينعكس من أسوار القصر المصفحة بالنحاس التى كان يحيط بها سياج من اللازورد الأزرق ، وكانت بواباته من الذهب الخالص وعمده من الفضة ومدخله من النحاس ؛ وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من الذهب والفضة نحتها هيفا يستوس بمهارة فائقة لتحرس قصر الملك العظيم . وكان بداخلها بهو فسيح صفت إلى جدرانه أرائك بثت فوقها نمارق من نسيج ناعم رقيق ، واقد اعتاد زعماء الفياكيس أن يأكلوا ويشربوا فى هذا البهو عندما يولم لهم الملك . وهناك أقيمت على قواعد راسخة تماثيل من ذهب لصبية يحملون مشاعل تضىء البهو ليلا لجموع المدعوين . وكانت بالقصر خمسون من الخادمات ، بعضهن يطحن القمح ، وبعضهن يغزلن النسيج ويعملن على النول .

---

(١) الأوديسا : ٥ : ٥٠ وما بعده .

وخارج الساحة كانت تقع حديقة القصر ، ومساحتها أربعة أفدنة تحيطها الأسوار من كل جانب بسقت فى جنباتها أشجار عالية مزهرة، فاكهتها دانية ، تفاح وكمثرى وتين وزيتون ورمان ، ثمار جنية أبداً ، لا مقطوعة فى الصيف ولا ممنوعة فى الشتاء، تهب عليها دائما ريح الصبا تنبت بعضها وتشيع النضج فى بعضها الآخر.

وعلى مسافة من أشجار الفاكهة يمتد بستان الكروم الخصب ، وبه مكان مسطح دافىء لتجفيف الأعناب ، وترى هناك جماعة وقفوا يجمعون العناقيد ويعصرونها ، وترى بعد ذلك أحواضا من الخضر المنوعة تتدفق فيها عينان ، يجرى الماء من إحداهما فى الحديقة كلها وتنساب مياه الأخرى تحت عتبة القصر ومنها يرتوى أهل المدينة . تلك نعم جزيلة اسبغتها الآلهة على الكينوؤس فى قصره (١) » .

* * *

أودوسيوس يناجى شبح أمه :

لما ذهب أودوسيوس إلى عالم الموتى ليسأل شبح العراف تيرسياس عن الصعوبات التى ستعترضه قبل الوصول إلى وطنه ، قابل هناك شبح أمه التى كانت ما تزال على قيد الحياة عندما توجه إلى طروادة . فاقترب منها ودار بينهما هذا الحديث المؤثر البديع .

« أى بنى ! كيف جئت إلى هذه الدار المظلمة وأنت ما تزال حيا ؟ إنه لمن الصعب على البشر رؤية العالم الآخر إذ تفصلهم عنه أنهار عظيمة وسيول جارفة مخيفة، والمحيط الأعظم الذى لا يمكن لسائر أن يعبره بل لابد له من فلك

(١) الأوديسا : ٧ : ٨٥ وما بعده .

متين . أواه ! هل ضربت فى عرض البحار بزورقك كل هذا الوقت الطويل حتى جئت هنا أنت ومن معك ؟ أو لم تصل إلى ايثاكا بعد ؟ أو لم ترزوجتك حتى الآن ؟ » .

ولما سكتت ، قلت لها : « أماه ! لقد جئت مضطراً إلى العالم السفلى ، جئت لأستشير روح العراف تيرسياس ؛ إننى لم اقترب بعد من وطنى ولم تطأ قدماى أرضه ، ومازلت هائما على وجهى نهبا للأحزان منذ توجهت مع اجاممنون العظيم للقاء أبناء طروادة . ولكن أخبرينى ولا تخفى علىّ شيئا ! أى قضاء أودى بحياتك ؟ هل طال بك المرض ؟ أم أصابك سهم من ارتميس ؟ حدثينى عن أبى وعن ولدى الذى تركت ! هل مازال فى أيديهما السلطان ؟ أم انتزعه منهما أحد ؟ هل يئس القوم من أوبتى ؟ خبرينى عن حال زوجتى ورأيها ! ألا تزال تعيش مع ولدنا وتحافظ على ثروتنا ؟ أم تزوجت أحد النبلاء ؟ » .

ولما انتهيت ، أجابتنى أمى قائلة : « لا يابنى ! إنها ما تزال وفية لك تقيم فى قصرك ، تقضى الأيام والليالى فى النحيب والبكاء . أما ملكك العريض فلم يستول عليه أحد وما فتأ ابنك يتولاه ، وما زال أبوك فى الريف لاينزل إلى المدينة ؛ إنه لا ينام على الأرائك ولا يستعمل الأغطية والوسائد ، وحتى فى الشتاء يفترش الثرى مع الخدم بالقرب من المدفئة ، يلبس ثيابا بالية ، فاذا جاء الصيف والخريف كان فراشه من أوراق الشجر ينام عليه تنتابه الأحزان وتقض مضجعه الآلام ينتظر عودتك رغم شيخوخته المضنية . وهكذا قضيت أنا الأخرى وانتهت أيامى ، فـــلا أرتميس رمتنى بسهم من سهامها ولا أصابنى داء أنهك بدنى وافنى حياتى ؛ لا ياولدى ! إنه الحزن والهم ، إنه الوجد والشوق إليك ، إن هذه جميعا هى التى حرمتنى الحياة الحلوة

ولما سكتت عن الكلام، أردت أن أضمها إلى فاندفعت نحوها لأمسك بها، ولكنها انفلتت من بين يدى كحلم سارٍ أو ظل مبتعد ؛ فامتلأ قلبى حزنا وناديتها بصوت مرتفع وقلت : « لماذا ياأماه ، ترفضين عناقى الذى اتحرق إليه شوقا لكى نتبادل القبل ونستسلم للنحيب والبكاء ؟ أم ياترى أرسلت إلىّ ربة هذه الدياجير شبحا يضاعف همومى وآلامى ؟ » .

فردت على وقالت : « أواه يابنى ! ياأتعس الناس أجمعين ! ماحاولت إلاهة الموتى أن تخدعك أبداً ، ولكنها سنة البشر : إذا ماتوا لم يبق منهم لحم أو عظم أو عضل لأن النار الحامية تلتهم أبدانهم عندما تفارقهم الحياة وتصعد أرواحهم ؛ فعجل وعد مسرعا إلى النور ، واذكر ماسمعت منى وقله لزوجتك[1] » .

* * *

قوس أودوسيوس :

كانت پنيلوپا تعلم أنه لا يوجد بين العشاق من يستطيع أن يشد قوس أودوسيوس لذا اشترطت عليهم أن يحملوها ويصيبوا بها هدفا، ووعدتهم بأنها ستكون لمن يصيبه فقبلوا وقاموا بهذه التجربة .

وكان ليوديس أول من حاول شد القوس ولكنه فشل وتركها ؛ فغضب انتنوؤس وأنبه بهذه الكلمات اللاذعة :

« ماذا تقول أيها الصديق ! أهذا نذير تخيفنا منه ! أم قول بغيض تثيرنا به ؟ ماذا تعنى ؟ لقد فشلت لأن أمك لم تلدك لشد القوس وإرسال السهام ، ولكن بيننا من سيشده وسوف ترى » .

---

(١) الأوديسا : ١١ : ١٦٣ وما بعده .

وجرب العشاق حظهم الواحد بعد الآخر ولكنهم اخفقوا حتى يوروماخوس أقواهم ، فلقد أبت القوس أن تلين فى يده فلما بلغ منه الجهد التى بها يائسا وقال :

« العار لى ولكم ! إن هذا الزواج لا يحزننى ولكن الخيبة تؤلمنى ، إن فى إيثاكا وفى غيرها من المدن حسانا وأزواجا لمن يريد ! ولكننى حزين لأننا دون أودوسيوس قوة ولا نستطيع أن نثنى قوسه . ياللخزى الذى سيعلم به أحفادنا » .

وعندئذ تقدم أودوسيوس (متخفيا) وقال : « أرجوكم أن تعطونى هذه القوس المتينة لأجرب قوتى ولأرى هل مازالت تجرى فى عروقى حيوية الشباب النابض أم أن بؤس الحياة ومتاعبها قد قضت عليها إلى الأبد » .

وثار القوم وتعالى صياحهم وخافوا أن ينجح فى شد القوس ، فسبوه وفكروا فى طرده ، لكن پنيلوپا أصرت على أن يحاول الشحاذ ما حاولوا وأيدها إبنها فيما رأت . وتقدم أودوسيوس وأخذ القوس وبدأ يفحصها ، وكانت ضربة قاصمة للادعياء الذين زاغت أبصارهم وامتقعت ألوانهم .

عندئذ يرسل زيوس الرعد يدوى فى السماء ، نذير شر وهلاك ؛ فيغتبط أودوسيوس كل الاغتباط ، ثم يلتقط سهما كان على المنضدة بالقرب منه ويثبته فى القوس ويرسله بقوة فينطلق ولا ينحرف ويخترق الهدف ثم ينظر البطل إلى إبنه ويقول :

« ياتليماخوس ! إن ضيفك لم يجلب عليك عارا ، إننى أصبت الهدف وثنيت القوس بدون تعب ، فما زلت قويا وكذب العشاق فيما ادعوا [١] » .

---

(١) الأوديسا : ٢١ : ١٦٣ وما بعده .

انتقام أودوسيوس

بعد أن نجح البطل فى إصابة الهدف ، صمم على الانتقام من العشاق الآثمين . فألقى أسماله وكشف عن شخصيته وتنـــاول قوسه وجعبته ثم قال لهم :

« وهكذا انتهت هذه المباراة الشاقة والآن سأسدد سهمى إلى هدف آخر . هدف لم يصبه واحد منكم ، ولكننى سأصيبه بمعونة اپوللون وبفضله سأحقق هذا المجد » .

ولما انتهى من كلامه ، شد الوتر وارسل سهما قاتلا إلى انتنوؤس الذى أوشك أن يرفع إلى شفتيه كاسا جميلة من ذهب ، مملوءة بالنبيذ ؛ إنه لم يكن يفكر فى الموت ولم يعتقد أنه قريب منه . وهل كان يجول بخاطره أن شخصا يستطيع ، مهما كانت قوته ، أن يقتله ويرسله إلى عالم الموتى فى مثل هذه الوليمة ، وعلى مرأى من هؤلاء المدعوين ؟ لا ! إلا أودوسيوس بالطبع ، الذى سدد سهمه إلى حلقوم خصمه ، فسقطت الكأس من يده وانقلب على ظهره وسالت الدماء من أنفه . وحينما رأى العشاق أخاهم على الأرض ، هاجوا وماجوا واندفعوا ، فى ذعر شديد ، يبحثون عن أسلحتهم ، ولكنهم لم يجدوا منها حربة ولا درعا .

وعندئذ صاحوا فى وجه أودوسيوس غاضبين : « ماذا أصابك ، أيها الرجل ! أتسعى إلى هلاكك ؟ وتسدد سهامك إلينا ؟ لقد كتبت على نفسك الموت الزؤام فلن تحمل هذه القوس أبداً ، لأنك قتلت أنبل شباب إيثاكا ، لذا سوف تنهش الطيور لحمك » .

فرد عليهم قائلا : « أيها الكلاب ! ظننتم أننى لن أعود من طرواده أبداً ،

فاستبحتم لانفسكم نهب بيتى ، واعتديتم على نساء قصرى وحاولتم إغراء زوجتى مع أننى مازلت حيا ، لا تخافون غضب الآلهة ولا انتقام البشر ، فالويل لكم لقد حان أجلكم » .

ولما سكت ارتعدت فرائصهم وأخذ كل منهم يحاول أن يجد له مخرجا إلا يوروماخوس فقد رد على البطل وقال :

« إن كنت حقا ملكنا أودوسيوس وعدت إلينا . فليس لى أن أدافع عما ارتكبناه من آثام فى غيبتك ، لقد ارتكبوا كثيراً من الخطايا فى بيتك وعاثوا فى الأرض فساداً . ولكن ها هو انتنوؤس ملقى على الأرض . إنه كان السبب فى ذلك كله ؛ إنه لم يهدف إلى الزواج من امرأتك ولم يرغب فيه ، ولكنه كان يفكر فى شىء آخر لم ترض عنه الآلهة ، كان يطمع فى أن يتربع على عرش إيثاكا المنيعة ويحكم شعبها ويقتل ولدك ، ولكنه قد لقى حتفه وهذه عدالة السماء .

فاعف عنا إذن نحن رعاياك وسنعوضك من كل ما استبحناه فى هذا القصر ، ولسوف يعطيك كل منا ما يرضيك من ذهب ومال » .

فقال أودوسيوس : « يوروماخوس ! إنكم لن تصلحوا ما أفسدتم مهما قدمتم لى من ثروتكم وثروة آبائكم ، فلن أكف عن هذه المذبحة قبل أن تدفعوا ما قدمت أيديكم ، فاختاروا إذن القتال وجها لوجه أو الفرار ولكنكم لن تجدوا إلى الفرار من الموت سبيلا » .

وسكت عن الكلام وزلزل القوم زلزالا ووجفت قلوبهم ، ثم صاح يوروماخوس قائلا « أيها الأصدقاء ! إن هذا الرجل لن يعرف الرحمة أبدا ، فها هو قد أمسك قوسه وجعبته ووقف عند الوصيد ولن

يتركنا إلا إذا قضى علينا جميعـــا ، فليس أمامنا إلا القتال . فهيا إلى سيوفكم وتدرعوا بالمناضد ضد سهامه السريعة القاتلة ، واهجموا عليه كلكم دفعة واحدة ، ولنحاول أن نزحزه عن الباب حتى نخرج إلى المدينة ونطلب النجدة ، فإذا ما تم لنا ذلك ، قتلناه وتخلصنا منه » .

وبعد أن وجه نداءه ، استل سيفه وهجم على أودوسيوس مرعداً ولكن أودوسيوس الباسل سدد ، فى التو ، إلى صدره سهما اخترق قلبه وصرعه ، فهوت رأسه على منضدة مجاورة ثم وقع على الأرض ولفظ أنفاسه وانتشرت على وجهه سحابة الموت المظلمة . وعندئذ هجم على البطل العظيم عاشق آخر أمسك بسيفه الباتر وحاول أن يزحزح أودوسيوس عن الباب ، وكاد ينال من البطل منـــالا لولا أن قفز نحوه تليماخوس وضربه من الخلف برمحه واغمده بين كتفيه ، فاخترقت ظهره وسقط العدو وارتطم بالأرض وأحدث صوتا هائلا ، ثم تراجع تليماخوس دون أن ينتزع الرمح من جسده ، وجرى نحو أبيه واقترب منه وقال له :

« يا أبتاه ! إنى ذاهب لأحضر لك حرابا ودرعا وخوذة تحمى رأسك ، وسوف أعد نفسى واسلح الراعيين لندافع عن القصر » .

فقال أبوه : « هلم يابنى وهات الأسلحة بينما أقاومهم وحدى ! أسرع حتى لا يتغلبوا علىّ » .

واطاع تليماخوس أباه وانطلق إلى الغرفة التى كان قد أخفى فيها السلاح ، فاحضر ما أراد من رماح وسيوف وخوذات وأدرع ثم لبس وألبس الراعيين وعاد ثلاثتهم ووقفوا إلى جانب البطل ، وبدت اثينا الحكيمة فى زى منتور وحاربت معهم بعض الوقت حتى أدركت أن كفتهم الراجحة ،

ثم تحولت إلى عصفور جعـــل يرفرف فى سمـــاء البهو . . . واستمر أودوسيوس فى تسديد سهامه إلى صدور العشاق حتى قضى عليهم واحداً بعد واحد (١) .

* * *

السلام يسود ربوع إيثاكا :

لما عرف أهل إيثاكا ما حاق بالعشاق من نكبة على يد ملكهـــا ، أهرعت جموع أقاربهم إلى قصره صاخبين ، واجتمعوا ليتشاوروا فيما ينبغى أن يكون ، فرأى بعضهم أن يحاربوا أودوسيوس وينتقموا منه . وكان زعيم هؤلاء يوپثيس « Eupithes » فقام فيهم خطيبا وقال :

« أيها الأصدقاء ، لقد جلب عليكم هذا الرجل المصائب الفادحة ، فكم من شاب يافع أبحر معه إلى طرواده ؟ وكم من محارب هلك هناك وكم من سفينة دمرت ؟ وهاهو ذا يعود ويقتل زهرة نبلائكم . فهلموا إذن قبل أن يفر إلى پولوس ، هلموا على عجل حتى لاتوصموا بالعار ماحييتم ! إنا إذا لم نثأر لأبنائنا وأخواننا فإن الأجيال التالية ستصمنا بالخزى دائما . إنى أصبحت لا أجد فى الحياة لذة أو متعة . فليتنى كنت الآن فى عداد الموتى ! هلموا إذن ولاتسمحوا له بالهرب » .

ثم جلس والدمع ينهار من عينيه ، فرثى القوم لحاله وأسفوا أسفا شديداً ، لكن ميدون اقترب منهم وقال :

---

(١) الأوديسا : ٢٢ : ١ وما بعده .

« أيها المواطنون ، أعيرونوا آذانكم ! إنكم مسئولون عن الشرور التى تنزل بكم الآن ، إنكم لم تقبلوا نصيحتى ولم تطيعوا راعيكم الأمين منتور ؛ لقد نصحناكم بأن يكف أبناؤكم عن حماقتهم وألا ينساقوا وراء طيشهم ويرتكبوا الآثام ويبددوا ثروة رجل من علية القوم ويضايقوا زوجته ، فظنوا أنه لن يعود أبداً . فهل تصغون إلىّ اليوم وتقبلون نصحية أسديها إليكم ؟ لا تذهبوا ولا تحاربوا أودوسيوس ولا تكونوا كالذى سعى إلى حتفه بظلفه » .

وما فرغ حتى تصايح القوم وثاروا واسرعوا إلى اسلحتهم يريدون أن يشعلوا نار حرب ضروس .

لكن أثينا مضت إلى زيوس ونادته قائلة : « ماذا تضمر فى نفسك ، يا أبتاه ؟ هل تريد أن تطول هذه الحرب المريرة وتمتلىء بالمعارك المخيفة ؟ أم ترغب فى التوفيق بين الفريقين وتنشر السلام فى إيثاكا ؟ » .

فرد عليها « مجمع السحب » قائلا : « فيم هذا التساؤل يا إبنتى ؟ أولم تصممى أنت على أن يعود أودوسيوس إلى وطنه ويعاقب أعداءه ؟ فاصنعى مايحلو لك . ولكن إليك رغبتى : مادام أودوسيوس قد ثأر لنفسه من العشاق ، فليكن السلام بين الفريقين ، وليحكم أودوسيوس على الدوام ؛ وعلينا أن نمن على أعدائه بالصبر وتنسيهم قتلاهم ونولد المحبة فى قلوبهم ليسود السلام فى أرضهم وتزدهر حالهم وتزيد ثروتهم ؟ » .

وحلقت أثينا فى السموات العلا وانطلقت نحو إيثاكا وبدت لأهلها فى صورة منتور وهتفت بهم وبملكهم وقالت :

« السلام ، السلام أيها المحاربون ، ضعوا حدا لهذه المعركة ولا تجلبوا عليكم غضب زيوس العلى العظيم » .

فاستجابوا لندائهـــا وتقاسموا على الود والوفاق واصبحوا أصفياء متحابين (١) .

---

(١) الأوديسا : ٢٤ : ٤١٢ وما بعده .

obeikandl.com